مُلَخَّصٌ فِي العُذْرِ بِالجَهْلِ

بِقَلَمِ:

أَبِي حَفْصٍ الأَزْدِيِّ



١٤٣٨ للهِجْرَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١]؛ **﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأنعام:٣٥].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

هذا ملخص في مسألة الجهل والعذر به:

قاعدة: كل من وقع في حدث وجب أن يشتق له من ذلك الحدث اسمًا -دل على ذلك الشرع والعقل واللغة!-، فإذا قام رجل اشتق له من فعله اسمًا فيقال "قائم" وإذا جلس قيل "جالس" وإذا نام قيل "نائم" وهكذا... فالواقف ذات متصفة بصفة الوقوف والجالس بالجلوس والنائم بالنوم. ومثلهم المسلم فهو ذات متصفة بصفة الإسلام، وعليه فمن أحدث كفرًا وجب أن يشتق له من ذلك الحدث اسمًا، هذا هو الأصل.

إلا أن الشرع جعل لفاعل الكفر "موانع" من إيقاع الاسم عليه **فهل الجهل من ضمن هذه الموانع التي اعتبرها الشرع؟** نقول يجب التفريق بين المسائل الظاهرة والمسائل الخفية فالمسائل الظاهرة والمعلومة من الدين بالضرورة وعلى رأسها التوحيد فهذه لا عذر فيها بالجهل فكل من وقع في الشرك الأكبر مثلا فهو مشرك ولو كان جاهلًا! هذا من جهة النظر إلى أحكام الدنيا أما في الآخرة فالله أعلم بحاله -ويأتي بيانه-.

فبلوغ الحجة الرسالية [القرآن والسنة] مسقط للعذر بالجهل فكل من بلغه القرآن ثم وقع في الكفر فلا عذر له في الدنيا ولا في الآخرة، أما من لم يبلغه لا قرآن ولا سنة -وهو الذي يصدق عليه وصف

الجهل المعتبر شرعًا- فحكمه في الدنيا أنه كافر وأما في الآخرة فحكمه إلى الله وقد ورد أن الله يختبرهم يوم القيامة.

وهؤلاء لهم حالان:

الأول: إن كان هذا الذي لم يبلغه قرآن ولا سنة قادر على التعلم -ولو بالرحيل في طلبه- ثم أعرض عن ذلك فلا يعذر قال القرافي: «**كل جهل يمكن دفعه لا يكون حجة للجاهل فإن الله تعالى بعث رسله إلى خلقه برسائله وأوجب عليهم كافة أن يعلموها ثم يعملوا بها فمن ترك التعلم والعمل وبقي جاهلًا فقد عصى معصيتين لتركه واجبين**» فكيف يكافأ على تقصيره برفع الحرج وإسقاط التكليف عنه؟! بهذا يكون الجهل خير له من العلم!!، قال ابن القيم: «**فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة!**» فمن تمكن من العلم وأعرض عنه فإنه لا يسمى جاهلًا -وإن كان كذلك- وإنما يسمى معرضًا والإعراض ليس بمانع من التكفير!! قال ﷻ: ﴿**وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام:٣٥].

الثاني: فإن عجز عن التعلم مع بذله الواسع لذلك فلم يصل إلى من يعلمه -مثلًا- فهذا الذي يصدق عليه وصف الجهل المعتبر شرعًا وهو الذي يعذر به في الآخرة أما في الدنيا فالأحكام على الظاهر فمن وقع في الكفر فهو كافر. قال ابن القيم في طريق الهجرتين: «**الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير الإسلام فهو كافر -قلت ومن وقع في الشرك الأكبر فقد دان بغير دين الإسلام- وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول، هذا في الجملة والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه، هذا في أحكام الثواب والعقاب أما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر فأطفال الكفار ومجانينهم في أحكام الدنيا حكم أوليائهم**».

فإذا تصورت المسألة فخذ أدلتها:

أولًا: قال ﷻ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة:٦]؛ فسماهم الله "مشركين" مع إثباته لجهلهم.

ثانيًا: قال ﷻ: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]؛ فهؤلاء جهلهم مركب ورغم ذلك لم يعذروا به بل سمو أخسرين!

ثالثًا: قال ﷻ: ﴿**لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات:٢]؛ فبين أن الرجل قد يأتي بعمل "لا يشعر" بأنه مكفر ورغم ذلك يحبط عمله!

رابعًا: قال ﷻ: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء:٣٦]؛ وقال: ﴿**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات:١]؛ فنهى سبحانه عن أن يقدم العبد على أمر وهو لا يعرف حكمه فمن خالف ذلك فقد عصى الله وأثم فإن كان العمل الذي أقدم عليه كفر كفر به إذ لا يكافأ على جمعه بين معصية التقديم بين يدي الله ورسوله والعمل الكفري برفع الحرج عنه كما يقول أصحاب العذر بالجهل!!

فهذه أربعة دلالات أبطلت القول بالعذر بالجهل:

- أن الله سمى قوما "مشركين" مع إثباته جهلهم.
- أنه بين أن الرجل يأتي بالعمل لا يشعر أنه كفر فيكفر به.
- أنه بين أن من تجاوز الجهل بشيء -أي عدم العلم به- إلى أن ظن أن الباطل حقًا والحق باطلًا -صار جهله مركب- فهو من "الأخسرين".
- أن الله فرض على العباد أن لا يقدموا على أمر إلا بعلم فمن عصى ربه في ذلك فوقع في مكفر لم ترفع عنه معصيته الحرج!!

بل إن الله بين أنه سبحانه إذا لم يسمع العبد دينه فهذا لأنه رأى أنه لا خير فيه قال ﷻ: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال:٢٣]؛ وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين) **فحجب الهدى عن العبد عقوبة من الله له فكيف يعذر بها؟!** وهذه تصلح دلالة خامسة على عدم العذر بالجهل.

فهذه خمسة أوجه من كتاب الله أبطلنا بها العذر بالجهل ومثلنا لكل واحد منها مثالًا ولم نرد بذلك الحصر وإلا فحيثما مررت على آية من كتاب الله تحمل دلالة من هذه الدلالات الخمسة فهي حجة في إبطال العذر بالجهل.

فلا عذر لأحد في الكفر بجهله ما دام مفرطًا في طلب الحق، فمن كان عاجزًا عنه كالكسيح الذي يعجز عن الرحلة إلى من يعلمه أو من نشأ في دار حرب لا يجد فيها من يعلمه ويعجز عن الهجرة منها أو كحديث العهد بالإسلام حتى يتعلم إذ لا يمكنه معرفة جميع مسائل الدين في يوم وليلة! فمن كان هذا حاله فوقع في كفر وهو جاهل فإنه لا يكفر وعذره ليس الجهل وإنما العجز عن التعلم... فتأمل!!

ومعلوم أنه لا تكليف إلا مع استطاعة فالعجز يسقط التكليف قال ﷻ: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ وقال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن:١٦]؛ قال ابن تيمية في الفتاوى: «ومعلوم أن الحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به» أما الشخص القادر على العلم ومع ذلك هو معرض عنه زاهد فيه منشغلًا عنه بدنياه فهذا كل كفر يقع فيه فإنه به كافر قال ﷻ: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٤٦]؛ قال ابن تيمية في الجواب الصحيح: «أن من عرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا استحق للعقاب وكذلك من فرط في طلب الحق واتباعه متبعًا لهواه مشتغلًا عن ذلك بدنياه» فساوى بين المعاند والجاهل المفرط! قال ابن القيم في مدارج

السالكين: «**فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة**».

وهذا كله في أحكام الآخرة أما أحكام الدنيا فهي على الظاهر كما سبق فكل من وقع في الكفر بجهله فهو كافر وقد سئل ابناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب والشيخ حمد بن ناصر كما في المجلد العاشر من الدرر السنية عن الرجل إذا قال أو فعل ما يكون كفرًا جهلًا فما حكمه فأجابوا: «عمله هذا كفر يبيح المال والدم وإن كنا لا نحكم على هذا الشخص -أي في الآخرة- لعدم قيام الحجة عليه ولا يقال إن لم يكن كافرًا فهو مسلم بل نقول عمله عمل الكفار وإطلاق الحكم على هذا الشخص بعينه متوقف على بلوغ الحجة الرسالية وقد ذكر أهل العلم أن أصحاب الفترات يمتحنون يوم القيامة». فأجروا الأحكام الدنيوية -استباحة المال والدم- على الظاهر ووكلوا أمر الآخرة إلى الله، وقال الشيخان حسين وعبدالله ابنا الشيخ محمد بن عبدالوهاب في ذات المجلد: «**من مات من أهل الشرك قبل بلوغ الدعوة فالذي يحكم عليه أنه إذا كان معروفًا بفعل الشرك ويدين به ومات على ذلك فهذا ظاهره أنه مات على الكفر ولا يدعى له ولا يضحى له ولا يتصدق عليه أما حقيقة أمره فإلى الله تعالى فإن كان قد قامت عليه الحجة في حياته وعاند فهذا كافر في الظاهر والباطن وإن كان لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله تعالى**».

فإذا عرفت هذا الأصل المحكم فاعلم أن لأصحاب العذر بالجهل نصوصًا يتعلقون بها ويجعلونها أدلة لشبهة "العذر بالجهل" وهذه النصوص التي يتمسكون بها هي من قبيل المتشابه الذي أمرنا برده إلى المحكم وعليه فاعلم أن كل شبهة يعرضونها فهي باطلة وإن لم تعرف الجواب عليها بعينها فلا يلزم أن يكون لكل شبهة جواب عندك وإنما يكفيك أن تعرف الحق كما قال الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه النفيس كشف الشبهات: «جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل، ومفصل. أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ**

﴿**تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران:٧]؛ -إلى أن قال- أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: «إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه... وهذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه وما ذكرت لي من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولكن اقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي عليه الصلاة والسلام لا يخالف كلام الله». وهذا جواب سديد ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله، فلا تستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت:٣٥]» انتهى.

والحمد لله رب العالمين.